السودان..
رئيس مع إيقاف التنفيذ

٦

الفصل السادس

عبقرية المكان في تدشين الحملات الانتخابية..

الدلالات .. المعاني.. الإشارات

obeikan.com

obeikan.com

لماذا اختار الرئيس الأمريكي القاهرة عام ٢٠١٠ مكانًا لتوجيه خطابه للعالم الإسلامي

■ ■ ■

أبجديات علم الخطابة الجماهيرية؛ تشير إلى أن إبداع لقاء جماهيري ناجح ومؤثر وفعّال، لا يعتمد فقط على «نص» الخطاب الموجه في هذا اللقاء، ولا على قدرات الخطيب البيانية فقط، و لا ينحصر في قدرته على استيعاب مجموعة المخاطبين، بل إن ما يصنع الإبداع، ويترك الأثر العميق، هو «اختيار» المكان والزمان المناسبين!، أو بعبارة أخرى استغلال العبقرية الزمانية والمكانية، فوحدها هي التي تجعل للحدث بُعداً زمانياً يستمطر الماضي و مكانياً يعكس تجليات الزمان ويحشد التاريخ، فتسقط الكلمات من الحاضر، لتختلط مع مكان التاريخ و تخترق برمزيتها حاجز الزمن، فتصل ملهمة بكل ما في الإلهام من قوة.

ولإنجاح أى احتفال بفعالية هامة سواء كانت مناسبة كبيرة، أو لقاء جماهيري، أو حتى اجتماع موسع، أو نشاط سياسي أو ديني، لابد من الاتكاء على هذه النظرية واختيار موقع إستراتيجى ينهض بهذه المعاني، و يحقق الدلالات ويبعث الإشارات ويرسلها بكفاءة ودقة لتصل إلى مستقبليها معبقة بأكبر قدر من المعنى، المعنى الذي لا يكتفي بالظاهر فحسب، بل ذلك الذي يحمل في طيه عبقاً كبيراً، يصل إلى الفئات المستهدفة من الحدث أو تلك المساعدة على نجاحه، وهو نهج تتبعه كل الأمم، فالنبي ﷺ في بادئ دعوته اختار الصفا وحشد إليه الناس ليربطه بقيم ومعاني شتى، وليُضمنه في خطابه، و الفلاسفة حددوا قاعات الدرس أو ميادين بعينها لتكون محملاً لتأريخ تداول الأفكار، وحتى الرؤساء اليوم يُخضعون أمر اختيار المكان للقاء الجماهيري لدراسات مطولة، ولا أدل على ذلك أكثر من ما فعله الرئيس الأمريكي (٢٠١٠) باراك أوباما، فعندما أرادت الإدارة الأمريكة البحث عن مكان مناسب للوفاء بالعهد الذى قطعه الرئيس الأمريكى

باراك أوباما فى غضون الأشهر الأولى عقب توليه السلطة بتوجيه خطاب هام للعالم الإسلامى. وبعد أن تم تحديد الرابع من يونيو عام ٢٠١٠م موعداً لإلقاء الخطاب،بدأت رحلة البحث والتقصى والدراسة عن اختيار المكان المناسب. حيث أشارت صحيفة الواشنطون بوست إلى أن اختيار أوباما لمكان توجيه الخطاب، استغرق أكثر مما كان متوقعاً إلى أن استقر على اختيار مصر. وأضافت الصحيفة أن قرار أوباما باختيار مصر لتوجيه الخطاب جاء بناءً على نتائج دراسة قام بها فريق بحثي متخصص تابع له، غير أن روبرت جيبس المتحدث الرسمي باسم البيت الأبيض قال ردا على سؤال من الصحفيين عن سبب اختيار مصر قائلا «إنها قلب العالم العربي». و من هنا تجلت عبقرية اختيار المكان ذو الدلالات الهامة والمغزى الحقيقى، باعتبار أن مصر بما لها من تأثير ودور محورى، وبما تمثله من وزن وثقل، وتاريخ وحضارة وإسلام معتدل ووسطى ومستنير ومتسامح، بحكم أن الخالق عز وجل وهبها ميزة تفضيلية بأن جعلها أرض الأنبياء ومهد الديانات وأرض السلام وطريق الحرب، وجعل منها أماً للدنيا، لكل هذه الأسباب ولغيرها اعتبرت مصر هى المكان الأمثل لمخاطبة خمس سكان العالم -أى المسلمين-. وباختيار مصر مكاناً لم تنته رحلة البحث، بل انقضى شق منها، فالآن دخل الفريق الباحث إلى خيارات ومفاضلات بين المواقع الدينية والتاريخية والأكاديمية، بين من هو الأفضل لإيصال الرسالة باعتدال، ما هو المفيد للخطاب، هل يكون هو الأزهر الشريف؟ أم جامعة القاهرة؟ أم قلعة محمد على باشا؟ أم مسجد سيدنا عمر بن العاص؟، أم يا ترى تكون هي دار الأوبرا؟ أم سفح الأهرامات أم ساحة سيدنا الحسين، وكلها خيارات تزخر بالمبررات، وكلها تاريخ يفيض و بنثر الدرر في جيد مصر، إلى حسم فريق البحث المكلف بالمهمة باختيار «جامعة القاهرة» مكاناً لإلقاء الخطاب، وكان اختيارها هي و الزمان، أبلغ من الخطاب ذاته، وأوصلت كل المراد، وكل المطلوب، بل إن الاختيار فاق الخطاب بلاغةً في التعبير.

عبقرية المكان في تدشين الحملات الانتخابية

هذا الوعي موجود في السودان، فمن قديم الزمان، وأهل السودان قوم يمتلكون نعمة إتقان الاختيار، اختيار الأماكن لعكس الرسالة، فمن الطبيعي أن تحضر هذه الظاهرة، في

الانتخابات الأخير، ظهرت هذه الظاهرة بصورة طاغية، فكان الاهتمام بعبقرية المكان وسحره وأثره، وكانت الدراسات للمفاضلة بين الأماكن التى تخيرها المرشحون الرئاسيون لانطلاق حملاتهم الانتخابية وتدشينها، وبدا كل حزب بما لديه فرحون، وكل اختيار عكس الأصالة والعمق، وعكس العز التليد والسند القوي.

البشير يدشن من استاد الهلال

بدأ التدشين مرشح المؤتمر الوطنى، وسبق بقية المرشحين ودشن حملته من أستاد الهلال الرياضى، وبالرغم من أني حاولت وسعي لأرى الارتباط الثقافي والفكري بين اختيار نادي رياضي، لتدشين حدث سياسي، لحزب ناشئ لا ارتباط له بالنادي من حيث النشئة، ولا من حيث الطروء! إلا أنني لم أجد، ولكن البعض فسر هذا الاختيار بأنه سعي لاستيعاب «الحشود» المُتخيلة، و قال آخرون، أنه تعود على «تخريج» الكلية الحربية للجند في نفس الإستاد، أما بعض الأصدقاء، فقد أرجع الأمر إلى محاولة استمالة الأندية الرياضية، بعدما اختفى الحس السياسي من الحزب! أيًا كانت العلة، فالذي خلصت إليه أن المؤتمر الوطني لم يجد ما يُحوجه لمدٍّ يصله بالتاريخ، أو هو لا يجده، ولا أغالي إذ استعجبُ أن يحاول قائد سياسي الاستناد إلى مكان له رمزيته الرياضية، ولا يجد ما يحمل معنى تاريخي يستطيع الاستناد عليه.

عرمان ينطلق من دار البطل على عبد اللطيف

أما ياسر عرمان مرشح الحركة الشعبية فقد اختار منزل القائد الوطنى الثائر البطل على عبداللطيف ألماظ بالموردة بام درمان(وهو بذلك يستلهم تاريخاً ماجداً ويناغم أحلاماً عراض، بالتاريخ الثائر والرافض للاستعمار، و يستشهد بمثال لوحدة السودان يؤكد لُحمة المجتمع، ويستشهد بالبطل علي عبداللطيف، وقد لقي هذا الاختيار استحساناً كبيراً، وعكس وعي ومحاولة من الأستاذ عرمان وصل حلقة التاريخ المفقودة بين جيل الثورة على المستعمر الذي فرّق بين الشمال والجنوب، وبين جيل الثورة على الحكم الشمولي الذي فرق بين الجنوب والشمال، فألماظ الذي جاب السودان جيئة من الجنوب وحراكاً في الوسط، حتى لقي حتفه في الخرطوم، فيما يحفه التاريخ السودان بإجلال كبير.

الدكتورة فاطمة تبدأ من سراي الزبير باشا رحمة بالجيلي

أما مرشحة الاتحاد الاشتراكى الدكتورة فاطمة عبدالمحمود فقد شذت على قاعدة من سبقوها الذين اختاروا أم درمان مكاناً لانطلاق حملاتهم فهاجرت إلى الخرطوم بحرى لتختار سراى الزبير باشا رحمة، بمنطقة الجيلى حيث لم يخلُ اختيارها من رمزية تاريخية فالرجل –على طول الجدل حوله– لعب أدوارا تاريخية مشهودة فى تاريخ السودان، أرادت توظيفها بما يخدم ويمجد ويلهم سير حملتها.

الإمام الصادق المهدي ورمزية دار الأمة

أما السيد الصادق المهدي مرشح حزب الأمة لرئاسة الجمهورية فقد اختار دار الأمة بأم درمان مكاناً لتدشين حملته الانتخابية وبدأ لبعض المراقبين أن الإمام الصادق المهدي بقامته وتاريخه واسمه أراد أن يجدد الحضور، فالرجل بحد ذاته تاريخ، ورمزية كبيرة، فأراد المهدي أن يمنح الزخم في تدشينه للمضمون الذي فيه الرسالة المحورية، للشعب وللأمة، و أراد أن يمنح أنصاره وغيرهم رسالة لترسيخ قيم المؤسسية و حث أنصار حزبه على الالتفاف حول دار حزب الأمة، و تذكر الدور المهم والقيادي الذي يجب أن تضطلع به، حتى وإن لم تكن عبقرية المكان بالقامة التي توقعها المراقب، إلا أن الطريق إليه كان رمزياً.

مرشح الحزب القومي يدشن من شرق النيل

أما مرشح الحزب القومى منير شيخ الدين فقد ذهب إلى الخرطوم بحرى كما فعلت الدكتورة فاطمة عبدالمحمود وقام بتدشين حملته الانتخابية من منطقة الحاج يوسف، فى دلالة لا تخلو من مغزى ومعنى وإشارة إلى التهميش الذى تعانيه هذه المنطقة، من حيث انعدام الخدمات، فى إشارة إلى أنه يسير على ذات الخطى والنهج للراحل الاب فليب عباس غبوش، حيث ظل تاريخيا يترشح ويفوز فى دوائر الحاج يوسف التى ربما تكون بها أغلبية سكان من قبائل جبال النوبة رغم أنها من الأحياء القديمة في شرق النيل التى يعود تأسيسها للشيخ الحاج يوسف وكانت محل خلاوى لتحفيظ القرآن وهي امتداد لمناطق تحفيظ القرآن في شرق النيل مثل أم ضوابان والعيلفون وود أبو صالح وود الفادني وود

حسونة، وبها مجموعة من الأولياء والصالحين المشهورين بكراماتهم .

الشيوعيون يضيئون ميدان العلمين

أمسية السبت الموافق ٢٠ فبراير ٢٠١٠م وعلى طريقتهم الخاصة فى تدشين الحملة الانتخابية أضاء الشيوعيون ساحة ميدان العلمين بالسجانة ووسط حضور مقدر من جماهير الحزب والقوى السياسية السودانية وفى كرنفال سياسى رياضى ثقافى هتف الشيوعيون«ديل نحنا القالو للناس انتهينا» إن اختيار السجانة مكاناً لتدشين الحملة الانتخابية للأستاذ محمد إبراهيم نقد مرشح الحزب الشيوعى لرئاسة الجمهورية لا يخلو من رسالة ذات معانى ومضامين جيدة ودلالات كبيرة فيكفى الإشارة أن هذه المنطقة بما تضمه بين أحشائها من أحياء عريقة مثل ميدان العلمين والسجانة والمايقوما والديوم الشرقية وشارع الحرية هذه الأحياء العريقة من الخرطوم التى تعايش فيها اهل السودان من كل القبائل بوئام وانصهار يرمز للسودان الاصيل العريق وتشكل حدود الدائرة الانتخابية التى حملت الأستاذ محمد إبراهيم نقد مرشح الحزب الشيوعى لمقاعد البرلمان المنتخب قبل انقلاب الإنقاذ فى ٣٠ يونيو ٨٩م .

حاتم السر.. يغرد خارج العاصمة من كسلا التاريخ الباذخ

أما أنا فقد قررت اللجنة المختصة أن يكون احتفالنا بالتدشين فى آخر المجموعة؛ وبررت ذلك بأن الأخير سيمكث فترة أطول فى أذهان وذاكرة المتلقين، علاوة على انهم يريدون أن يقفوا على فقرات الاحتفالات ليأتوا بشىء متفرد وجديد وغير مسبوق، وبالفعل كانت اللجنة فى حالات انعقاد يومى ما بين مكتب الأستاذ على السيد ومكتب الأستاذ إبراهيم عبيد بالإضافة إلى مقر اللجنة الرئيس بالخرطوم بحرى، وتوالت الاجتماعات وتواصلت إلى أن تبلور شكل البرنامج، وكان محتويا على فقرات جديدة، وعلى فيلم تسجيلى يربط التاريخ بالحاضر، وكان محل انعقاد الاحتفال محل مناقشة مستمرة تم حصرها فى النهاية فى ثلاث خيارات جنينة السيد على الميرغنى بالخرطوم، ساحة مسجد مولانا السيد على الميرغنى بالخرطوم بحرى، قاعة الصداقة.

شرعت اللجنة فى جمع التبرعات وإعداد المطبوعات والبوسترات وتجهيز الخلفية واختيار الفنان واختيار الشاعر فى انتظار تحديد الميعاد لتقديم الدعوة وتوصيلها للمدعوين الذين تم حصرهم فى الدبلوماسيين الإعلاميين السياسيين وقيادات الأحزاب ومرشحى الحزب ، ووجهاء المجتمع، ونشطت بالفعل لجان الحزب حتى التي كانت خارج الوطن،وتم إعداد بطاقات دعوة لغالب الإخوة العرب و الأفارقة، وبعض الأصدقاء في بريطانيا.

ولكن الله قدّر لنا الفتح المبين، و ساقتنا العناية الإلهية إلى خيار ما كنا نحسبه ممكناً، فجاءنا اقتراح من السيد رئيس الحزب مولانا السيد محمد عثمان الميرغنى، بنقل التدشين إلى مدينة كسلا «المعقل التاريخي للحزب»، وبشرنا بأنه سيكون في مقدمة زائريها لمباشرة هذا التدشين، كاسراً بذلك روتين التدشين ومستشعراً أهمية نقل الحراك إلى الهامش، وعدم احتكار العاصمة لكل شيء، وتلك نظرة أثرتنا كثيراً، نقلت موافقة واقتراح مولانا إلى الأصدقاء في اللجان، فتلقفته اللجان بالسرور، وأبدى بعضهم مفاجأته ! فقد كان القرار بالنسبة لهم مفاجئا لأنه لم تكن هناك ترتيبات خاصة لزيارة مولانا للولايات، ولكن الله قدر، وجاءت الإشارة، فكانت عبقرية الزمان!، التي ملأتني ثقة بأن سفينتنا تجري وعين الله ترعاها.

كسلا اسم لا يستطيع أحد أن ينطقه مثلما يفعل مع سائر الأسماء، فكسلا التاريخ والشرف الباذخ، كسلا الأمان و حمى السلطان، تلك المدينة الحدودية الوادعة، الخضراء التي كانت مبنعاً للشعر العذب التي خضّر بها الشعراء وجدان هذا الشعب، تحتضنها جبال التاكا، وتلفها توتيل ويرعاها السيد الحسن.

هل هناك أبلغ من كسلا؟!، ماذا نريد أن نقول ولا تحتويه ملامح كسلا، هل نريد أن ننقذ الاقتصاد المتهالك، إذاً كسلا التي تمتد في كيانها وسطوته الختمية إلى أطراف مصوع! فمن سينعش العلاقات البينية غيرنا، هل نريد أن نقود تنمية زراعية! أوهل هناك أبلغ من رسالة السواقي؟ هل هناك أنجع من القاش ليقول أنه سيأتينا طائعاً دافعاً عجلة التمنية، يسقي الزرع ويشبع الضرع، هل نود أن نرفع الضنك عن المهمش؟! أومن مهمش أكثر صبراً من مهمشي كسلا أحبتنا؟!، أنريد أن نمنح العالم السلام و التسامح؛ وهل لهما معين

أظهر من معين السيد الحسن الحُسن الباهي السمح ! الذي أسس لمعاني المحبة ونشر الوفاق، أي وحدة أكبر من أن يؤم مرقده الشريف كل أهل السودان!، فتجد أمام ضريحه الطاهر نعل العرب والأفارقة، وتسمع حديث تجارة الغرب والصعيد، الكل يأتي هنا! إنها وحدة السودان وتسامحه، إنه السودان القديم المجيد، وإننا السودان الجديد الفريد، إننا مزيج الأمس واليوم، الأصالة والنضال، كسلا أرض المحنة يوم كانت القلوب صافية والحنين دفاق، وأهل السودان بمقام من الشعر الحسن والمعاني العتيقة! ياه يا كسلا، لا أبالغ إن قلت أن كسلا كانت تنظر إلى مولانا السيد محمد عثمان وتنتظره، ولكأنه بهجرته «خلى أرض القاش حزينه»، كانت عودتنا هي إشارة عظمى وبشارة كبرى، رحم الله السيد الحسن فقد كان رجلاً كثيراً، منحنا ببركته لبنة الوحدة والتعايش في وطن يسع الجميع، في كسلا تشرق شمس الوجد، ونرفع الرايات.

ما أن أعلنا الخبر حتى وجاءتنا البشريات، وانهالت على رئيس الحزب الدعوات، هذا يُذَكر بجده الذي اعتاد أن ينزل ضيفاً عليه، وذاك يقسم عليه أن يمر على قريته، وتلك تبشره، وكأن أهل كسلا، في وقفتهم وشوقهم يكابدون الزمن لوصال زمانهم القديم!.

تمت الترتيبات، وأعدت العدة، فكان الطريق إلى مطار الخرطوم الدولي، بمثابة الطريق إلى كرسي القصر، بل كان أحلى منه وأجلى، وقفت الجماهير أمام باب المطار مطار الخرطوم الدولي، وكأنهم يستقبلون عودة الظفر، ويحيون معنى النصر، لمحت في أعينهم بشائر النصر، و قرأت البراءة من كل زيف ونفاق، كان مولانا الميرغني سعيداً ومهيباً، عني أنا أذهب لكسلا للبركة و لقاء الجماهير، أما مولانا فهو يذهب ليشع نور التاريخ في ربوع السودان، ليسقي الناس من رحيق الكرامات الكبرى، ليسجل أن زمان الكرامات الكبرى حي، وأن الطيب لا يفنى.

على باب المطار، عبرتني الدموع، لمشهد لا يوصف، فأنا حينما أتجه إلى كسلا أحمل في جوانحي كل ماذكرته عاليه من جمال، من محبة، من تاريخ صوفي كان بؤرة للهدى وللتسامح، وغاية جهدي أن استمطر ذلك التاريخ في هذا الحاضر، وأستثمره، ولكن كانت مفاجأتي التي هزتني، حينما رأيت مجموعة من الصغار، صغيرات بأعمارهن التي لم

تتجاوز السابعة يتوشحن بعلم الوطن ذي الألوان الثلاث، بعلم الحزب الباهي، ويحملن صوراً لرئيس الحزب، ولشخصي!، كم هو باذخ ذلك الإحساس الذي عمني، كم هو باذخ أن يستنطقك المستقبل و يأتيك ليقول «أنا أنتظرك»، هل أنا حلم الصغار! هل أنا مسؤول عن آمالهن! هل أنا كل هذا! ويحك يا ابن سر الختم، كم حملك ثقيل، ولكن هل يخش حاتم و السيد الميرغني حيّ ! حاشاه ما يخاف ولا يخش، فأنا كما ناصر حينما كان يقول للسيد علي الميرغني : أؤهزم وأنت حي؟، فلا والله لا أخشى و الميرغني بحكمته بيننا.

كانت الساعة (التاسعة صباحًا)، قطعت تفكيري رسائل الموبايل النصية، «الانتخابات حُسمت لصالحكم»، « »كسلا تقف على قلب رجل واحد في انتظاركم»، «لا منافس لمجذوب أبو موسى في الولاية» فيض كثير من الرسائل التي شوقتني لأرى! هل ياترى كسلا تحتشد للقائنا كما احتشد إحساسي للقاء السيد الحسن!

بدأت علامات الانهزام الواضح تضج في وجوه منسوبي الحزب الآخر!، وبدأوا يعملون الفتن والمحن، و لم يخيبوا سوء الظن العريض بهم، الذي ساقه أحد الأصدقاء حينما قال: لن يتركوكم تخرجوا من الخرطوم، فهم يطيلون الاجتماع بالميرغني إلى حد الصباح وينهكونه بالاجتماعات حتى لا يحرك الأمة بجولاته.

وبالفعل، وبعد انتظار طويل لمولانا السيد محمد عثمان الميرغنى ووفده بصالة كبار الزوار بمطار الخرطوم لمدة تجاوزت الأربعة ساعات جاءت الحجج الواهية و الأعذار القبيحة، اعتذروا بأن الطائرة غيرصالحة للطيران وأنها تحتاج لصيانة، هكذا كان رد سلطات شركة الخطوط الجوية السودانية التى لم يشفع معها اصطحابنا للسيد عمر عبدالله محمد خير.دار جدل بين أعضاء الوفد فى هذه الأثناء كان محوره أننا ارتكبنا خطأ كبيرا باستئجارنا لطائرة من الخطوط الجوية السودانية ولم يخف هذا الفريق الناغم على هذه الخطوة تخوفه من انفجار الطائرة أثناء التحليق بمن فيها ولذلك أبدوا سعادتهم بأنها تعطلت وأصبحت غير قادرة على الإقلاع.بدأت رحلة البحث عن بديل عن طائرة أخرى من الشركات الخاصة وما أكثرها وما أسعدها بالمشوار فكانت الاستجابة الفورية من أكثر من شركة ووقع اختيارنا على شركة ..... وطائرتها المسماة (سلفاكير) وأتت أمام بوابة كبار الزوار وعندما هممنا بالتوجه إليها كانت المفاجأة بأن المجال الجوي للمطار مغلق

للصيانة، وقام بعض أعضاء الوفد بإجراء اتصال هاتفى مع مدير المطار ولكنه تعلل بأنه لا يستطيع أن يعطينا أذناً وأبان أن الجهة المخولة بذلك هى رئاسة الجمهورية ممثلة فى الوزير بكرى حسن صالح، فحبسونا فى الصالة لزمن إضافى جديد لساعات، قلنا لهم سنتدبر أمرنا و لن نترك أولئك الذين احتشدوا دون أن نقبل جباههم، لن نتأخر عن كسلا ولو اضطررنا للذهاب إليها حبواً.

أخبرنا الإعلام بأننا سنقيم مؤتمراً صحافياً، وكانت معنا فى نفس الطائرة كاميرا الجزيرة والعربية والمصرية ووسائل إعلام أخرى، وكنا سنفجر المواقف الكبرى، إلى أن تمت اتصالات لا أستطيع ذكرها كاملة، انتهت بالسماح لنا بالسفر بنفس الطائرة وفي ذات التوقيت .

كان خوفهم كبيراً، من النصر الذي سيوثيق، فهو استفتاء يجعل اللجوء إلى الجماهير عبث، حينما تغلق كل البيوت و كل الأسواق، بل حينما تتوقف الحياة في كسلا وتقف لتقول بصوت واحد «نحن نؤيد حزب السيد» حتى تخال أن توتيل هي الهاتفة، وأن الجبال هي التي تصيح «عاش أبوهاشم» وأن السواقي هي التي تخبر «حاتم حاكم للسودان». لا يحتاج الأمر بعد ذاك إلى بيان.

حينما حطت الطائرة ساد الجمع صمتٌ مهيب، تذكر الجمع في صمتهم هذا كل مرارات السنين و هيجوا كوامن التاريخ ومكونات الأمم!، ففاضت أحاسيس جوع الروح والشوق و الحنين، ارتعشت فيهم ذكريات الألم، القسوة، الجبر، التسلط، تذكروا أيام النضال حينما كانت الدنيا ضيقة وقاسية! وكانت الشكوى عزيزة ! حينما كان صوت خليفتهم يعلوا بالقرآن قائلاً : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة] سكتوا وتتنازعهتم مرارات و ذكريات بغيضة! ولكن برغم ذلك غشتهم بعض النفحات! وتجاذبتهم آلام وآمال، فكان مشهداً لا يجوز عنده سوى الصمت وم إذا عسى الكلام يقول وقد طارت القلوب ولما يسكن اضطرابها!، كانت لحظةً مهيبةً بكل ما تعنيه المفردة وبقدر ما تسعه من ظلال !فهي فاصلةٌ في تاريخ كسلا،

(كسلا الميرغنية)، إي والله: إن لم تحط طائرته في كسلا اب جلابية فأين ستحط! كسلا التي جاء منها نور الإمداد و الإرشاد (كسلا الميرغنية) الختمية الخالصة، كسلا التي يتوسل(براجلها) كل أهل السودان، يزورونه حباً فيه ولما رأوه منه، هو اللين البشوش سلطان العارفين و ممد الغارفين، ذي الأنوار،(اب جلابية)، كانوا يقفوان أمام باب الطائرة و أمام باب المطار وفي الشوارع والميادين، يستقبلون ماضيهم التليد، يستقبلون الأستاذ الختم و السيد الحسن! كثيرون قادتهم قلوبهم لم يخبرهم أحد و لكنهم يعلمون يقيناً أن مقامهم ينبغي أن يكون عند باب هذه الطائرة!، أن التاريخ يدفق فيهم نوراً لا يدرون من أين جاء، ولكنه يقودهم إلى باب هذه الطائرة، ساقتهم قلوبهم سوقاً إلى ذلك المقام، دعوها فإنها مأمونة!، وما أن فُتح الباب، حتى وارتعشت كل الآمال وتنادت بالصوت العالي (عاش أبو هاشم عاش أبو هاشم !)وأبو هاشم عندهم –يا سادتي – اسم لا يخضع لشروط اللغات ولا يصح معه له غير الرفع في النحو، أبو هاشم تاريخ ضارب، حاضر واعي، مستقبل مضمون. تاريخ من المحبة الإلهية، مجد متسلسل من البطولات وأروع ضروب الوفاء، أبو هاشم –عندهم– محلٌ لتجليات الرحمة، باب من أبواب رحمة الله الواسعة، هو علمهم أن الدين سلام و الدين محبة والذكر شعار الليل والخلق الحسن دليل المؤمن! و أن الخلق عيال الله!، أبو هاشم –في تكوينهم– قصة أسطورة، شيء لا تحصره الكلمات، أبو هاشم هو حوض عشمهم بوطنهم الأمن السالم الذي يريدون، هو حلمهم بالأمان، هو حلمهم بسودان واحدة قوي معافى من الحروب، هم جربوه و خبروه وما خاب ظنهم يوماً، لم يحبوه اعتباطاً لم يعشقوه إلا عن وعي وإدراك عميق، بأنه رجل المبادئ والخصال النبيلة.

كانت جموع الناس هادرةٌ وصوتهم واحد، بايعناك يا عثمان، نحن معاك ياعثمان دنيا وأخرى نحن معاك، وهتافات جعلتنا جميعاً نطمئن لما قالوه لنا أشياخنا حينما نقلق) بأن ما كان لله يبقى(، فهذا الدرب درب لا يفنى و لايزيده الوعي إلا ثباتاً ومُضاء، المبادئ الأصيلة التي قامت ونهضت عن محبة واقتناع لا سبيل لتغييرها، إن الأستاذ الختم رضي الله عنه لم يمشي بين الناس بسلاح غير سلاح الهدى ليجبرهم على محبته، بل مضى بينهم بلسان الحق وبمنهج الرسول ﷺ وبطريقة واضحة الأركان أساسها أعرف شيخك

وحب الكل، ولم يطغى مولانا السيد الحسن الميرغني (اب جلابية) رضي الله عنه ولم يجبر أحداً على أن يواليه، ولكن تواضعه و لين عريكته وحسن ارشاده وتجديده للحياة جذب اليه قلوب الملايين، فقد صاغ لهم أسساً لدينهم ودنياهم ومعاني خاطبت مشاكلهم وحوائجهم، ولم يطلب لقاء ذلك إلا تجديد دعوة جده ﷺ المودة في القربى!، وعلى نهجه كل بنيه الطاهرين، إن الذي ألف قلوب أهل السودان (الصادقين) لمولانا الأستاذ الختم رضي الله عنه، و جذبهم لإبنه السيد الحسن نور الله ضريحه، هو ذاته الذي ساق هذه الجموع لتقف أمام مولانا السيد محمد عثمان الميرغني حفظه الله ورعاه، إن قلوب أهل التاكا مأمونة، وقد قالت كلمتها، في أنها أصل في الحزب الإتحادي الأصل، وأنها ركن من أركان مولانا الميرغني، و لا تغيير و لا تبديل.

كسلا ليست وحيدة، ولن تستأثر بتفردها بهذا الحب لهذه المبادئ، بارا موضع الميلاد ستكون أقوى وآكد وأسمى وستسمعون ذات الهتاف، وكذلك عطبرة ومروي و الجزيرة الخضراء و جوبا –نعم جوبا– فإن الأستاذ الختم حينما زار السودان لأول مرة لقي مثل هذا الاستقبال وأكثر، السودان كله سيقف خلف هذه السماحة وهذه الطيبة. بل كل مقام يقف فيه هذا (الإمام المرشد) بهذه المبادئ والمعاني وبهذا التاريخ سيلقى ذات الترحاب، إن احتفاؤنا بمولانا الميرغني بهذا الزخم، لا ينبع عن فراغ بل جاء –بعد إيماننا العميق به– لتأكيد أن إعادة أزكاء مكونات المجتمع الأساسية ضرورة وطنية خالصة للحد من قرون العنصرية و التطرف، فإن طريقة مثل الطريقة الختمية كانت صمام أمان للسودان الكبير، فإن أهلنا كانوا يعتكفون في بارا أياماً ثم يذهبون إلى كسلا ويعتكفون فيها أياماً أخرى ويعودون لحلة خوجلي بعد طواف بسنكات و الشرق العامر!، كانت هذه الزيارات تمتن العلاقات وتقويها فالدارفوري يجمعه الطريق إلى الله والمحبة باهله في الشرق، والمكون الثاني هو الأحزاب السياسية، فبظهورها وانتظام الناس فيها كانت الشكاوى والمطالب تنال قدراً من المناقشة والمناصحة، بلا بروز لحركات تتعنصر لعنصر قبلي أو جهة بعينها، فإحياؤهما أحد سبل الخروج من الأزمة السودانية.هكذا دشنتني الحملة الانتخابية! وتركتني بين ذهول، بين ملايين عددا احتشدوا لا يريدون سماع شيء غير عاش أبوهاشم،

لا يريدون مني إلا أن أكون منهم.

بكل لطف تقدم أحد مذيعي القنوات، وقال عزيزي حاتم السر، الانتخابات حسمت لصالحك في الرئاسة ولمجذوب أبو موسى في الولاية، أستطيع أن أبارك لكما، فكسلا وحدها تزن ملايين الناخبين!، فماذا تبقى؟! قلت له؛ هذا لوكنا في بلد تحترم أصوات هؤلاء! إني لأخشى أن يرموا صوتها في البحر!، ولكن الذي كان أن «شال» أصواتهم القاش .